

الرحلة مع السفر^(١) يثبت الحج، بوصفه نشاطاً ثقافياً، عدم فائدة العالم الأرضي، ويعارض الحياة الأرضية بمصادقاتها، وبوسها مع التطواف والبحث. بحث عمودي عن نظام علوي، يكمل ويضعف من الطريق الأفقي، والمسارات، ونهارات الطريق. خلال العصر الوسيط كله، كان الحاج يسافر ضمن مجموعة للحج إلى سان - جاك في كومبوستيل، وهذا الحج قاد المرشدين الأوائل، بالمعنى الحديث للكلمة، وقليلاً جداً من (الأدب)، وتفصيلات عن وضع الفنادق، والاستراحات الضرورية، والدورات الواجبة، باسم عبادة مفهومة جيداً، والوجبات التي يجب التعرف عليها. كان يجب الانتظار حتى القرن السادس عشر والقرن السابع عشر لكي نرى الحاج يتقل وحيداً، متحولاً إلى شخصية رومانسية، حتى وإن تحول إلى موضوع لمقطوعات شعرية. لقد استبدل رحلته الروحية بالبحث العشقي : مثل (الحاج في وطنه) للوب فيغا، و(الحاج في الحب) في كتاب SOLEDADES (الوحدات) لغينغورا، و(الحاج ماشياً) في كتاب PERSILES لسرفانتس، وهذه الأعمال روائية ضمن ذوق الروايات اليونانية القديمة وفي العمل المشهور (الإبحار إلى سبتير) لقاتو، نرى أن الشخصيات الرجالية احتفظت ببعض عناصر لباس (JACOBITE). وبذلك تم نسيان كومبوستيل .. ولكن المظهر الجمالي للحج أدى إلى التفكير بشكل أولي بـ (السياحة)، مع الرحلات الجماعية والمنظمة، بخبراتها ومرشديها الدائمين.

* - الرحلة أو إثبات الفرد :

تتعارض الرحلة مع الحج والسياحة في الوقت نفسه، من حيث أن الرحالة يحتفظ بالسمة الفردية لعمله، وقراره. لا وجود لرحلة دون قرار يتخذه فرد بحرية، حتى إذا (خاصة إذا) لم ترسم لذة اكتشاف المجهول جانبياً منذ البداية، وزادت من شهية غير المنظور الذي يحمله كل رحالة. " أعرف الذي أهرب منه، ولكن ليس الذي أبحث عنه "، هذا ما يقوله مونتيني الذي نستطيع أن نعهده مع بيترارك وإيرازم من النماذج الأدبية الأولى عن الإحساس الارتحالي، وعن نظرة مهتمة بمشهد العالم. هذا النوع من الحرية (أو القدرية) للرحالة يجب ألا ينسنا بعض الطرق التي لا تجعل الرحالة حراً بصورة حقيقية في اختياراته، وتقلاته. إن ظاهرة (الدورة الكبرى) التي كانت تقود سيداً إنكليزياً شاباً حول العالم للقيام برحلة لمدة سنتين أو أكثر يزور خلالها فرنسا، وأرض الفن والسعادة الإيطالية (والتي جاءت منها كلمة سياحة)، تسمح بروية اختلاط جولة

(١) الرحلة في الأدب العربي الحديث، R.L. C، ١٩٩٤، ج ١